التأويل عند هانز-غيورغ غادامير: الحقيقة بوصفها انكشافاً في الفهم

المدرس المساعد: حوراء حميد محسن

hawraa77@uomstansiriyah.edu.iq

يُعد التأويل)Hermeneutik(في الفلسفة المعاصرة أحد أبرز الحقول المعرفية التي عرفت تحولاً راديكالياً منذ النصف الأول من القرن العشرين، حيث غادر موقعه كأداة منهجية لفهم النصوص إلى كونه نمطاً وجودياً للفهم ذاته. وقد كان لهانز-غيورغ غادامير (1900 -2002) الدور الحاسم في هذا التحول، من خلال كتابه التأسيسي "الحقيقة والمنهج" (Wahrheit und Methode)، الذي مثّل محاولة جذرية لإعادة التفكير في طبيعة الفهم خارج حدود النموذج العلمي والمنهجي التقليدي.

1_ التأويل بين المنهج والوجود: قطيعة مع دلتاي

يتموضع مشروع غادامير في قلب الهرمنيوطيقا الفلسفية، ويأتي رداً ضمنياً على جهود فلهلم دلتاي، الذي سعى إلى تأسيس منهج خاص بالعلوم الإنسانية، يقابل المنهج التجريبي للعلوم الطبيعية. كان هدف دلتاي إخراج الفهم من إطار الذاتية والحدس إلى فضاء "العلمية"، وذلك عبر بناء منهج يستند إلى التعاطف والتفسير الداخلي. أما غادامير، فقد رأى في هذا الطموح نوعاً من الوهم المنهجي؛ إذ اعتبر أن الفهم في العلوم الإنسانية ليس موضوعاً للضبط العلمي، بل هو بنية أصيلة في وجود الإنسان، لا يمكن تقييدها بمنهج محايد.

يرى غادامير أن الفهم لا يبدأ من نقطة صفر معرفية، ولا يتأسس على قواعد منهجية صلبة، بل ينشأ في سياق تاريخي وثقافي ووجودي مشبع بالتحيزات المسبقة. وبهذا المعنى، لا يكون الفهم عملية عقلانية خالصة بل هو انخراط حي في العالم، وتفاعل مع النص أو الظاهرة ضمن شبكة معقدة من العلاقات الزمانية والتقليدية والمعرفية.

2_تأثره بهايدغر: الفهم كتجلي للكينونة

يتجذر موقف غادامير في تأويلية هايدغر الوجودية، ولا سيما في ما يتعلق بمفهوم "الوجود في العالم")In-der-Welt-sein(. فالكائن الإنساني – بوصفه "دازاين" – ليس كائناً يتأمل العالم من الخارج، بل هو منخرط فيه وجودياً، ويتشكل وعيه من خلال هذا الانخراط. وعليه، فإن الفهم لا يُنظر إليه بوصفه فعلاً معرفياً ثانوياً، بل كشرط أنطولوجي سابق على كل تمثل أو تفسير. إن الفهم – وفقاً لهذا التصور – ليس مجرد أداة لمعرفة الأشياء، بل هو الطريقة التي يظهر بها العالم للكائن الإنساني.

وهنا يبتعد غادامير نهائياً عن التصور الأبستمولوجي للفهم، ليقيمه ضمن أفق أنطولوجي. فالحقيقة لا تُستخلص من خلال منهجية تفسيرية، بل تُكشف عبر تفاعل وجودي حي بين الذات والعالم، بين المؤوّل والنص.

3_ اندماج الآفاق: من الفهم الفردي إلى الفضاء التأويلي

واحدة من أهم الإسهامات التي قدمها غادامير للهرمنيوطيقا هي فكرة "اندماج الآفاق")Horizontverschmelzung(. الأفق، هنا، يشير إلى مجمل التصورات والانتظارات والخبرات التي تحدد أفق الفهم لدى المؤول. وهذا الأفق ليس ساكناً، بل يتغير باستمرار من خلال انفتاح الذات على أفق النص أو الآخر.

عندما يقرأ المؤوّل نصاً ما، فإنه لا يتعامل معه كشيء خارجي أو كموضوع قابل للتحليل فحسب، بل يدخل في علاقة جدلية معه، حيث يلتقي أفقه الخاص بأفق النص. ومن خلال هذا اللقاء التفاعلي، يتولد فهم جديد لا ينتمي كلياً لا إلى المؤول ولا إلى النص، بل هو ثمرة لجدلية التأويل التاريخية والثقافية. وهكذا يصبح الفهم حدثاً، لا حالة ذهنية مغلقة، بل سيرورة ديناميكية تنفتح على الجديد والمفاجئ.

4_ التحيزات والسلطة التاريخية للتقليد

يرفض غادامير التصور السلبي الموروث عن التحيزات)Vorurteile(، والتي غالباً ما ترتبط في الفلسفة الحديثة بالأحكام المسبقة واللا عقلانية. على العكس، يعتبر غادامير أن التحيزات تشكل الشروط المسبقة التي تجعل الفهم ممكناً. فهي ليست عوائق معرفية يجب التخلص منها، بل هي " مقدمات للفهم" تمكّن المؤول من الدخول في علاقة حية مع النص أو الظاهرة.

ينتمي هذا التصور إلى ما يسميه غادامير بالسلطة التاريخية للتقليد، فالفهم لا يتم في فراغ، بل في سياق ممتد من التقاليد الثقافية والمعرفية واللغوية. وما يبدو وكأنه موقف ذاتي تجاه النص، هو في الحقيقة موقف تخلّق ضمن منظومة من القيم والتصورات التي تعبر عن انتماء المؤول إلى تاريخ معين.

5_ الحقيقة بوصفها حدثاً تأويلياً

في نهاية المطاف، يرى غادامير أن الحقيقة لا تتجلى في معايير موضوعية مطلقة، بل تظهر كحدث تأويلي يتحقق في فعل الفهم ذاته. هذه الحقيقة ليست مطابقة بين الفكر والواقع، بل هي انكشاف لشيء ما في سياق الفهم، ولا يمكن فصلها عن الشروط التاريخية والثقافية التي تحكم ظهورها.

وبذلك تتأسس تأويلية غادامير على نزع الطابع الأداتي عن الفهم، وعلى تجاوزه إلى مستوى أنطولوجي يتعامل مع الفهم بوصفه ضرباً من الحضور في العالم، لا مجرد عملية عقلية تحليلية. إنها تأويلية تعترف بتاريخية الفهم، وبانحيازه، وبتأثره بالتقاليد، لكنها لا ترى في ذلك نقصاً أو عيباً، بل شرطاً ضرورياً لانكشاف المعنى.